تفعيل الملكات والمعارف

أ.د. خليل النّحوي
جامعة نواقشط - موريتانيا

الحمد لله والصّلاة والسّلام على مولانا محمّد وآله ومن والاه.

وددت أن أتناول مسألة تفعيل المِلَكَات، وتحقيق التّوازن بين المعارف، في البداية لا بدّ من ضبط للمصطلحات بسرعة وإيجاز، ويحضرنا هنا ما ذكره العسكريّ، في التّفرقة بين العلم وبين المعرفة، إذ قال:

"إنّ المعرفة أَخصّ من العلم، لأنّها معرفة بعين الشّيء، بينما العلم قد يكون معرفة ببعض صفات الشّيء، فكلُّ معرفة علم، وليس كلُّ علم معرفة" .

وعندما نتأمّل في آيات الكتاب، نجد ما يسند هذا القول، فكلُّ الآيات التي ذُكرت فيها المعرفة، جاءت متعلِّقة بأمر يقيني، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون /69] .

قد يكون هناك إنكار، ولكن هناك علم يقينيّ، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النّمل /93].

و قال أيضا: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمّد /30]، إلى غير ذلك من الآيات المتعلّقة بالمعرفة، قد نتوسّع، فنستخدم المعارف بمعنى المعلومات عموما، وهذا هو الشّأن الدّارج اليوم، لكنّنا هنا نحرص على استخدام المعرفة للإشارة إلى أيّ تربيّة، لا تُحوّل المعلومات إلى مَلَكَات، أو أدوات لاكتساب المِلَكَة، إلى معرفة راسخة، ليست تربيّة ناجحة، فنحن نحرص على استخدام هذا المصطلح، تمسّكا بالكيف الّذي

تتحقّق به المِلَكَةُ، أمّا المِلَكَةُ فلعلّ أبرز تعاريفها، أنّها صفة راسخة في النّفس، يَعسُرُ زوالها، تصدر عنها الأفعال بدون رويّة.

وقد أضاف ابن خلدون مفهوما مهمّا، رغم تأكيده الشّديد في مواقع كثيرة، على أنّ المِلَكَةَ دربة الرّأس، لكنّه في بعض المواقع، ربطها بالفطرة، وجعلها أمرا فطريّا جِبلّيا، وأعتقد أنّ هذا الملمح، لم يُؤت حقّه من البحث والتّمحيص.

ولو أنّنا عدنا إلى كتاب الله، وتأمّلناه جيّدا، لوجدنا أنّ المعجم العربيّ، يشير إلى أنّ المِلَكَةَ، هي فرع من هذا الجدل اللّغويّ المتكوّن من الحروف الثّلاثة، فهي مُلك قد يكتسب صفة جِبلّيّة، ومَلَك بفتح الميم، هي أقرب إلى ما يتّصف به الملائكة جِبِلّةً.

وقد يكون هيئة مكتسبة غالبة، كالهيئة الّتي يكون بها المِلكُ بكسر اللاّم، عندما يكون المِلْكُ من هذا الباب، يكون أمرا مكتسبا، ومحلّ نزاع، لذلك أشار القرآن الكريم على لسان أولئك القوم، بقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾** ﴾ [البقرة /247] .

فعندما يكون الأمر أقرب إلى الجِبِلّيّة والفطرة، في هذه الحالة تكون أقرب إلى الصّفة الأخرى مَلَك، وإلى ذلك يشير القرآن على لسان الرّجيم اللّعين، بقول الله تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾** ﴾ [الأعراف/ 20].و هذه إشارات لطيفة، لمسألة المِلَكة، بجانبيها الفطريّ والمكتسب.

هناك تصنيفات عدّة للمَلَكَات، نختزلها في ثلاث حزم، فالله سبحانه وتعالى، زوّد الإنسان حين خلقه، بثلاث حُزم من المِلَكات، يمكن أن نسمّيها استعانة بالبيان العربيّ، مَلَكَات لسان، أو مَلَكَات بنان، أو مَلَكَات جِنان، فمَلَكَات اللّسان، هي مَلَكَات تواصليّة،

ومَلَكَات البنان، نشير بها إلى كلّ ما نحتاج إلى بقيّة الأركان في إنجازه، وكلّما هو مُنتج، ومَلَكَات الجنان هي ملكات ناظمة تتعلّق بالعقل والقلب والوجدان .

الملاحظ أنّ المشكلة الكبيرة في حُزم المِلَكَات هذه، أنّ النّظام التّربويّ حين يُفَعِّلُ بعضها فإنّه غالبا ما يعطِّل بعضها الآخر، وذلك يرجع إلى الانفصام الّذي حصل بين التّعليم والتّزكية.

فالأصل في الرّسالة رسالة المعلّم الأكبر، الحبيب محمّد صلّى الله عليه وسلّم . أنّها رسالة تعليم وتزكيّة، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[البقرة /129] .

النّظام التّربويّ السّائد، أخذ التّعليم إلى حدٍّ كبير، فهو يشحن ذهن الطّالب بِكَمٍّ من المعلومات، ولكنّه قلّما يلتفت إلى جانب التّزكية، ماذا يحدث نتيجة ذلك ؟

يحدث ضرب من الإعاقة، فنجد الخِرِّيج معاقا بنسبة ما، فقد تجد مهندسا، لا شأن له بالبلاغة ومهارة التّواصل، أو أستاذ في اللّسانيات يدُه سُلطانة، لا يستطيع أن ينجز بها شيئا، إلا إذا أخد قلما ليكتب به، فهناك شبه إعاقة ناتجة عن الفصل بين التّعليم والتّزكية، وترتّب عليها تعطيل بعض المِلَكَات، مقابل تفعيل بعضها الآخر جُزئيّا.

ما أريد أن أسترعي إليه الانتباه، هو أنّنا بحاجة إلى إصلاح تربويّ، فنحن أمَّةُ اقرأ، أولى بأن نحمل همّ وصل المنفصل، ورتق المنفَتِق، في هذا المشهد التّربويّ الّذي نعيشه اليوم، نستذكر في هذا السّياق، ما يمكن أن نسمّيه وحدة المعرفة، أو التّكامل المعرفيّ، فهناك رحم رابطة بين المعارف البشريّة، وأريد أن أشير إلى أمر، أعتقد أنّه بالغ الأهمّية، فلا يوجد في القرآن علم بالجمع، ولكن توجد معلومات متعدّدة، أشهر معلومات، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ﴾ [البقرة/ 197]، وأيّام معلومات، قال تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [الحجّ /28]، لكن لا يوجد مصطلح علوم .

فلم يأت العلم في القرآن إلّا مفردا، وجاء بصيغ العموم، منها الألف واللّام المستغرقة قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾ [آل عمران/ 18] .

وقال أيضا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾ [آل عمران/ 07] .

وقال أيضا: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ [المجادلة/ 11] .

ومن صيغ العموم أيضا التّنكير، قال تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤ ﴾ [طه/ 114] .

وقال أيضا: ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ ﴾ [الكهف/ 65]، فلم يأت هذا العلم مقيّدا، أو مخصّصا بصفته، وإنّما جاء مطلقا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ [العلق/ 01] .، بدون مفعول، حتّى نعلم أنّه علينا أن نقرأ كلّ شيء، هذه إشارات، لعلّها تنبّهنا إلى أنّ هناك وحدة بين المعارف البشريّة، وأنّ علينا أن نكتشف هذه الوحدة، ولعلّنا نجد نماذج في القرآن الكريم، تتحدّث عن تجارب، ففي قصّة ذي القرنين، نجد أنّه استعمل الهندسة والإدارة معا، في موقف سلوكيّ معيّن، وفي قصّة الخضر عليه السّلام، إذا تتبّعنا الآيات، نجد علم التّربية، والنّجارة والبناء، نجد القضاء والحقوق، نجد التّاريخ، مجموعة من المعارف، تتفاعل في قصّة واحدة، في شخص واحد، لعلّه في ذلك إشارة إلى أنّه علينا أن نصل هذه الرّحم، وفي ذلك يقول ابن العربيّ كلمة لطيفة، مُؤدّاها أنّه لا ينبغي للإنسان، أن يكون عالما في فنّ، بهيمة فيما سِواه.

هناك تعلّق كبير، في الجمع بين هذه المعارف، جمعا ليس بالضّرورة، مجرّد جمع تركيبيّ ولكنّه جمع كيميائيّ، تتوالد فيه هذه المعارف وتتناسب، وهنا يحضرني ما ذكر من أنّ النّاس كانواْ يفزعون إلى فتواه، في الطّبّ، كما يفزعون إلى فتواه في الفقه.

إنّ التّربيّة حوّلت المعارف البشريّة، إلى جزر متناثرة متنافرة متنابذة، والعالم اليوم بدأ ينظر إلى ضرورة الرّبط بين هذه الجزر، وما نحتاج إليه في دعوات تُسمّى عند الغرب:

multi discipline أو transdisciplinaire ، وفيما يُدعى إليه في إطار أَسْلَمة المعرفة، وفي غير ذلك من الدّعوات، هناك دعوات اليوم إلى إعادة الوصل، بين المنفصل من المعارف الإنسانيّة .

وأعتقد أنّ مشكلة هذه الدّعوات، أنّها بقيت في غطاء فلسفيّ، إلى حدٍّ كبير، ونحن بحاجة إلى مقاربات تنفيذيّة، نتعلم بها كيف يُسْندُ بعض المعارف بعضا، وأشير إلى نكتة طريفة في هذا المجال بأن أحد المهَرَة في اللّغة، لم يكن له حظٌّ كبير في الفقه، لكنّه قال بأنّه يستطيع أن يستخرج أحكاما فقهيّة من اللّغة، فاستُفْتِي في سجود السّهو لمن نسيه، ماذا يفعل؟ قال: لا سجود عليه، قِيل له: كيف عرفت ذلك ؟! ، لأنّ المصغَّرَ لا يُصغّر مرّتين، ويُروى أنّ بن السّراج، استعان بدرس النّحو في درس الطّب، واكتشف العلاقة بين النّحو والطّبّ.

وفي الأخير، أرجو أن يهتمَّ هذا المركز، بإعادة اكتشاف الرّحم ما بين المعارف البشريّة، وكسر الحواجز الفاصلة، بين هذه المعارف الّتي نجدها، حتّى داخل ما اصطلح على تسميّته بالعلوم الإسلاميّة، والواقع أنّ هناك سؤالا وجيها، فقد قال أحدهم يتحدّثون عن علوم دقيقة، وعلوم إنسانيّة، فهل معنى ذلك، أنّ العلوم الدّقيقة غير إنسانيّة، أم أنّ العلوم الإنسانية غير دقيقة، هل معنى حديثنا عن العلوم الشّرعيّة، على جانب أنّ العلوم الأخرى، غير شرعيّة، هذه الأسئلة وغيرها مفتوحة للتّفكير.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.